واجبنا نحو الاستشراق

يرى بعض المفكرين المسلمين أننا يجب أن نتابع كل ما يكتبه المستشرقون لنرد عليه ، حماية لعقول الشباب أن تتأثر مما يكتبون ، وأنه يجب أن تقوم بهذا العمل هيئات ومؤسسات متخصصة يكون همها جمع كل ما يكتب من كتب أو مجلات أو صحف أو نشرات ، لإعداد الرد عليها ، وأن يكون في كل جامعة من الجامعات العربية والإسلامية قسم لدراسة الاستشراق والرد على المستشرقين .

ورأيي أن الأمر لا يحتاج لهذا الجهد كله ، وإن كان بعضه ضروريا ومفيدا بإذن الله .

وذلك لجملة أسباب :

من بين هذه الأسباب أن معظم النشاط على الساحة لا يقوم به اليوم المستشرقون ، إنما يقوم به « المستغربون » ممن يحملون أسماء إسلامية ، ويكتبون بلغات المسلمين ! وليس كلهم يكتبون أبحاثا تدرس – وإن كان بعضهم يفعل ذلك – وإنما كثير منهم يكتبون مقالات ، أو يقيمون ندوات ، أو يلقون محاضرات ، أو يخرجون أفلاما في السينما ، أو لقاءات أو مسرحيات أو مسلسلات في الإذاعة والتلفاز .. والمعركة بينهم وبين الإسلام والمسلمين دائرة ومستمرة ، تأخذ ثوب « العلمانية » من جانبهم ، والدعوة إلي الإسلام من جانب الإسلاميين ، وتأخذ شكل تيارين متقابلين تماما ، أحدهما يلقى التأييد من جانب الصليبية الصهيونية ، والآخر يلقى الحرب والاضطهاد .. ولا يشكل المستشرقون على أي حال في الوقت الحاضر عنصرا بارزا في حلبة الصراع .

ومن الأسباب كذلك أننا لو اتجهنا إلي الرد على كل ما يكتبون فلن ننتهي ! ويستطيعون هم بذلك أن يشغلونا مشغلة دائمة ، تبدد جهدنا بلا نتيجة ذات بال . فما أسهل أن يختلقوا كل يوم فرية يفترونها على الإسلام – والمعين جاهز! – ليشغلونا بالرد عليها وتفنيدها ، وإضاعة الوقت والجهد فيما لا يستحق إضاعة

الوقت والجهد فيه ، بينما هم كما رأينا في الفصول السابقة لا يكادون يضيفون جديدا فى الغثاء الذى يكتبونه ، إنما هى مجرد « أزياء » مختلفة لموضوعات مكررة ، يعاد الحديث فيها مرة بعد مرة ، وأهدافها واحدة رغم اختلاف الأزياء !

إنما يحتاج الأمر فى نظرى إلى شيئين :

الأول وهو الأهم والأكثر حدوى هو إزالة الغربة التى يقع فيها الإسلام اليوم، تلك الغربة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ حين قال : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » (١) . والتى تتسبب اليوم فى جهل كثير من الناس بحقيقة الإسلام ، سواء فى جانبه الاعتقادى ، أو جانبه التعبدى ، أو جانبه السلوكى ، أو جانبه الفكرى .. وتجتاج من الدعاة إلي جهد متواصل طويل الأمد ، طويل النَفَس، صابر محتسب ، حتى تزول تلك الغربة بحول الله . وتلك هى مهمة « الغرباء » التى حددها رسول الله ﷺ فى حديثه تحديدا واضحا حيث قال : « فطوبى للغرباء ، يصلحون ما أفسد الناس من سنتى » (٢) .

والحق أن إزالة تلك الغربة كانت تحتاج إلي عمل أوسع مما يستطيع الدعاة – وحدهم – أن يقوموا به . تحتاج إلي إصلاح نظم التعليم كلها ، بإزالة الروح العلمانية المتفشية فيها – المنقولة عن الغرب – وإقامتها على روح إيمانية (٣) ، وإصلاح الدراسات الشرعية ذاتها بتحويلها من مجرد الحفظ والاستظهار إلى تربية الحاسة الاجتهادية التى تستوعب التراث جيدا لا لتقف عنده ، بل لتفيد منه فى إصلاح الحاضر ، والإعداد لمستقبل يقوم على قاعدة إسلامية صحيحة .

وتحتاج إلى إصلاح وسائل الإعلام ، لتكف عن بث الهبوط والانحدار الذى تبثه باسم « الفن » كأنما الفن لا يتعلق إلا بقبضة الطين من الإنسان ، ولا علاقة له بنفخة الروح !

---

(١) أخرجه مسلم . (٢) أخرجه الترمذى .

(٣) تكلمت عن هذه النقطة فى كتاب « حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية » ، وبينت أنه ليس المقصود هو قلب الدراسة كلها إلى مواعظ ! وإنما المقصود الانطلاق من منطلق إيمانى ، وذكرت نماذج توضح ما أهدف إليه .

﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشرا من طين ۞ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ [ص : ٧١ ، ٧٢]

فإنما صار الإنسان إنسانا بنفخة الروح العلوية فى قبضة الطين ، ولم تكن قبضة الطين قط هى الإنسان !

وتحتاج إلى أمور كثيرة أخرى ليست قائمة فى الوقت الحاضر . ولذلك يحمل الدعاة الحمل كله على أكتافهم ، فضلا عما يجدونه من اضطهاد وقمع ، وحرب لا تكف . ولكن هذا قدرهم الذى قدره الله لهم ، وحسبهم ما بشرهم به رسول الله ﷺ من الأجر : « يأتي زمان الصبر ، أجر الواحد فيه كخمسين منكم . قالوا : منا أو منهم يا رسول الله ؟! قال : بل منكم ، فإنكم تجدون على الخير أعوانا ، ولا يجدون » (١) .

وكل جهد يبذله الدعاة فى تعريف الناس بحقيقة الإسلام ، هو فى الوقت ذاته عمل إيجابى فى مواجهة تخرصات المستشرقين والمستغربين جميعا ، فإن من يعرف هذا الدين المعرفة الحقيقية لا يستمع إلى تلك التخرصات أصلا ، ولا يلقى لها بالا إذا سمعها أو قرأها ، لأنه يعرف ابتداء أنها تخرصات ، وأن دين الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولو كره من كره ، وقال من قال .

أما الأمر الثانى الذى نحتاج إليه فى مواجهة المستشرقين والمستغربين فهو تفنيد « القضايا » التى يثيرونها ، بالرد إلى الكتاب والسنة : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [النساء : ٥٩]

وفرق بين تفنيد « القضايا » والرد على كل كلام يكتبونه عن الإسلام ! فالكلام كثير لا ينتهى ! ويمكن أن يختلق كلام جديد فى كل يوم ! ولكن « القضايا » التى تثار محدودة ومعدودة ، وهى التى ذكرنا معظمها فى الفصول السابقة .

---

(١) أخرجه مسلم .

ولقد كان القرآن الكريم يرد على دعاوى المشركين ، أي على « القضايا » التى يثيرونها ، وليس على كل كلام يثيرونه فى مجالسهم ! فقد كانوا لا يكفون عن الكلام بما تغلى به قلوبهم من الحقد على الإسلام والمسلمين ، ولكنهم يثيرون « قضايا » معينة ، لا يفتأون يكررون الحديث فيها . كل بطريقته الخاصة ، وبما أوتى من قوة اللدد فى الخصومة واللجاج فى الكلام !

وما أشبه الليلة بالبارحة !

خصوم اليوم هم خصوم الأمس : اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون . وهم يقومون بذات الدور الذى كان يقوم به أعداء الدين على عهد نزول القرآن .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٨ ، ٩]

فإن تكن هناك قضايا جدت غير التى كان يثيرها مشركو مكة وأهل الكتاب يومذاك ، لأنها تولدت من مجرى التاريخ الذى استغرق أربعة عشر قرنا منذ ذلك الحين ، ، فلا بأس من تناول هذه القضايا وتفنيدها لمن علق فى قلبه شك بشأنها من كلام أعداء الإسلام المعاصرين ؛ أو لتقوية إيمان الناس بصدق دينهم وعظمة تاريخهم ، فقد قال إبراهيم عليه السلام حين سأله ربه : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠]

فلا بأس ، لطمأنة قلوب المؤمنين ، من الرد على القضايا التى تستحق الرد من الركام الهائل الذي يلقى به المستشرقون – والمستغربون – فى الساحة الإسلامية لفتنة الناس عن دينهم . ولا بأس أن يكون فى الجامعات أقسام تبحث فى الاستشراق ، لكن لا لترد على كل صيحة فارغة من صيحاتهم ، وإنما لتفنيد ما يستحق التفنيد من قضاياهم ، ولتعرية الاستشراق ذاته ، ببيان دوافعه الحقيقية ، وبيان موقعه من المخطط الشرير الموجه من الصليبية الصهيونية ضد الإسلام والمسلمين . ثم لتعرية الجاهلية المعاصرة ، التى يسمونها « الحضارة

العربية » ، والتى يدعو المستشرقون والمستغربون المسلمين إلي الأخذ بها بديلا من الإسلام ، وبيان الجوانب النافعة منها ، التى يجدر بالمسلمين أن يأخذوها ، والجوانب الهابطة المنتكسة التى يجدر بهم أن يستعلوا عليها بإيمانهم .

* * *

وختاما نقول: إن المعركة ضد الإسلام شرسة وحادة ، على جميع الأصعدة، ومن جميع الاتجاهات ، ويقوم بها اليوم العالم كله ، الصليبى الصهيونى ، والمشركون فى كل الأرض . ولكن قدر الله هو الغالب :

وقدر الله أن يبقى هذا الدين فى الأرض إلى يوم القيامة ، وأن يظهر على الدين كله ، مهما فعل المستشرقون والمستغربون ، ومهما بذلو من جهود شيطانية للوصول إلى أهدافهم .

ولكن هذا القدر المقدور لا ينفى عن الأمة مسئوليتها ، ولا يقعدها عن بذل جهد مضاعف يزيل آثار الركود والقعود الذى أصابها فى فترتها الأخيرة ، وكما قال رب العالمين:

﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾

[محمد: ٤]

وقال سبحانه بعد أن قرر أن الكفار لن يسبقوا قدر الله ولن يعجزوا الله، ولن ينالوا غرضهم:

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... ﴾ [الأنفال : ٦٠]

ومن القوة المطلوبة المعرفة بحقيقة هذا الدين ، ومعرفة كيد الأعداء ، والتحصن من هذا الكيد بالثبات على هذا الدين ، والصبر على تكاليفه :

﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾ [آل عمران : ١٢٠]

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف : ٢١]